تأملات في سفر نشيد الأناشيد

الروحيون يقرأون هـذا السـفر، فيزدادون في محبـة الله. أما الجسـدانيون فيحتاجون في قراءته إلى مرشـد لئلا يسـيئوا فهمه، ويخرجوا من معناه السامي إلى معان عالمية...

تأملنا في الموضوع السابق في قول عذراء النشـيد "أنا نائمة وقلبي مستيقظ..." (نش5: 2- 4) ونتابع تأملاتنا في نفس النص من زاوية أخرى...

[1]أنا نائمة، وقلبي مستيقظ..

آفـة كبرى، أن يخطئ الإنسـان، ولا يحس أنه أخطأ. فيكون ضـميره. نائمًا، وقلبه نائمًا أيضًا: لا يوبـخ، ولا ينتهر، ولا يبكت، ولا يبث شعور الندم والخزي.

أمـا هـذه العـذراء فعلى الرغم من نومهـا، كان قلبها مستيقظًا. كانت لها الحساسـية القلبيـة المرهفـة، على الرغم من أن الإرادة كانت ضعيفة... كانت نائمة، كسـلانة، لا تريد أن تقوم وتفتح الباب... وعلى الرغم من هذا الكسل، كانت تلتمس لنفسـها الأعذار! "قد خلعت ثوبي، فكيف ألبسه؟ قد غسلت رجليّ، فكيف أوسخهما"...؟!

كثيرا ما يأتي على النفس شـعور، إنها تريـد أن تستريح. وهكذا يصـبح كل عمل روحي وقتذاك، ثقيلًا عليها. إن هذا العمل الروحي سـيكون على حساب راحتها وهـدوئها واسـترخائها واسـتجمامها... جاءها صوت الله متأخرًا!! بعـد أن خلعت ثوبها وذهبت لتنام. بعد أن تعبت من ثقل النهار وحره، ودخلت لتستريح... كيف تقوم مرة أخرى؟! وكيف تسير لتفتح الباب.

هل تشاء يا رب أن نفتح بابًا جديدًا للجهاد، بعد أن خلعنا ثوب الحرب ودخلنا لنستريح؟!

ألا تتركنا لنستريـح من هـذا الجهاد؟ ونغفو ولو قليلا؟! حقًا، إن الروح نشـيط (القلب مستيقظ)، ولكن الجسـد ضـعيف، لـذلك فأنا نائمـة. صعب أن يأتينا الامتحان، ونحن في وقت راحتنا، أو ونحن في برودة روحيـة. حينئـذ تكون الحرب شديـدة، لأننا غير مسـتعدين لها. ولعله من أجل هذا السبب، قال لنا الرب:

"صلوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا في سبت" (مت24: 20).

الشـتاء وقت البرودة، والسبت وقت الراحة...هذه العذراء أتتها الدعوة الإلهية في وقت رأته غير مناسب. كان يمكن أن يجيئني الرب قبل أدخل إلى حجرتي، وأخلع ثيابي، وأغسل رجلي، وأعطر يديّ، وأغفو لأستريح...!

هنا يبدو أن الدعوة الإلهية تحتاج إلى بذل، وإلى تضحية، وإلى عطاء... إنها طريقة الله...

يطلب من الأرملـة أن تعطي من إعوازها، ويطلب من إبراهيم أن يقـدم ابنه الوحيـد الذي تحبه نفسه، ويطلب من أرملة صـرفه صـيدا أن تعطي لإيليا كل غذائها في وقت المجاعة... المسألة تحتاج إذًا إلى بذل، لأن العطاء من سعة هو عطاء رخيص، لا يمس القلب...

أما البذل، فهو دليل على الحب. ودليل على أن الإنسان قد خرج من سيطرة الذات، ووضع نفسه في المتكأ الأخير..

وهذا هو محك الاختبار الذي يريده لك المسيح...

يريـد أن تثبت حبك عن طريق تعبك وبـذلك. وحسـبما تتعب وتبـذل، على هذا القدر يعوضك الرب أضـعافًا في ملكوته. وكما قال الرسول "كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبه" (1كو3: 8) ... لا تستسلم للراحة. قم واتعب من أجل الرب.

هكذا يكون الصليب هو علامة محبتك للرب، لابد أن تحمل صليبك في طريقك إليه، ولابد أن تصعد على الصليب..

عذراء النشـيد دخلت إلى فراشـها لتستريح، وتثاقلت في أن تقوم. ولكن على عكسـها كان داود النبي، الذي أقسم قائلًا "إني لا أدخل إلى مسـكن بيتي، ولا أصـعد على سـرير فراشـي، ولا أعطي لعينيّ نومًا، ولا لأجفاني نعاسًا، ولا راحـة لصدغي، إلى أن أجد موضـعًا للرب، ومسـكنًا لإله يعقوب".

كانت العذراء نائمة، بينما الكتاب يحذرنا من هذا النوم بقوله:

"لئلا يأتي بغتة، فيجدكم نيامًا" "اسهروا إذًا وصلّوا".

"أنا نائمة وقلبي مستيقظ. صوت حبيبي قارعًا..."

أريد أن أتمتع بالنوم، وأتمتع بحبيبي في نفس الوقت.

أريد أن أحب، دون أن أختبر "تعب المحبة"...

إنه حبيبي، وأنا أحبه، وأعرف صوته، وأميز صوته. من صوت الغريب. مشاعري كلها نحوه، "ولكن أن أفعل الحسنى لست أجد". عندما مد يده من الكوة "أنَّت عليه أحشائي". قلبي كله له، ولكن إرادتي مبتعدة عنه بعيدًا، لا تقوى على الطريق الضيق، ولا تقوى على حمل الصليب...

متى تتصالح الإرادة مع مشاعر القلب، وتخضع لها؟

متى أسمع صوت حبيبي، فأقفز من على فراشي، ولا أطيق أن أنام. إنما أخرج أنا أيضًا معه "طافرًا على الجبال، وقافزًا على التلال" (2: 7)، أتبعه حيثما كان...

يكفي أنه تنازل وأتى إليّ، ويكفي أنه ناداني باسمي.

إن نداء الرب، له تأثيره العميق مهما تكاسلت عنه.

إن كلمة الرب قوية وفعالة، ومثل سيف ذي حدين، ولا يمكن أن ترجع إليه فارغة... هذا الصوت الذي رن في أذنيّ، قد رن بالأكثر في قلبي. ومهما كنت نائمة، لابد سأقوم...

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث - بمجلة الكرازة - السنة السادسة (العدد الثامن) 21-2-1975م